مجلة إنسانيات معاصرة (Revue Inssaniyate Mouãssira)
المركز الجامعي صالحي أحمد – النعامة -
ISSN : 2830 - 8050
المجلد: 01 العدد: 02 سبتمبر 2022 م الموافق لـ: صفر 1444 هـ

النضال والمقاومة في الشعر الشعبي الجزائري
الشاعر *محمد بلخير* أنموذجا

د. نور الدين بن قدور
أستاذ محاضر – أ– في الفلسفة
المركز الجامعي صالحي أحمد –النعامة

الملخص:

كان الشعر الشعبي الجزائري وسيظل يعبر عن آلام وآمال الشعب وعن أحزانه وآلامه عن رقيه وانحطاطه، إنه باختصار نابع من عمق المجتمع نفسه، فهو خالد خلود المجتمع ويكتسي طابعا متميزا، ولقد أخذت دائرته تتسع بفضل جهود أهل الاختصاص من باحثين ومنظرين وكتاب وشعراء وقراء ومبدعين على اختلاف مناهجهم ومناهلهم، وجهودهم لا تزال متواصلة والبحث في هذا الحقل لا يزال في مرحلة البداية، إذ ينبئ عن نظريات وآليات ومناهج جديدة ستكشف عنها البحوث والدراسات المستقبلية.

ويزخر الأدب الشعبي الجزائري بمجموعة كبيرة من الشعراء الشعبيين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشاعر "**محمد بلخير**" الذي يعتبر واحدا من أعلام الشعر الشعبي وشعرائه الفحول المشهورين بالجزائر الذين تركوا تراثا شعريا ضخما لا يزال الكثير منه مغمورا وربما ضاع الكثير منه بسبب الإهمال واللامبالاة، ولعل ما وصلنا من شعره إلا القليل الذي كان محفوظا في الذاكرة الشعبية ومكنونا عند بعض المهتمين .

هذه الورقة من البحث محاولة لبعث جزء من التراث وإخراجه إلى النور، والتشهير أكثر بشخصيات كبيرة ومجهولة، كما تروم هذه الورقة تبيان دور الشعر الشعبي وأهميته في تحديد وتسجيل جانب مهم من تاريخنا المجيد ومساعدتنا على الفهم الصحيح والسليم للعديد من الجوانب الغامضة فيه.

الكلمات المفتاحية:

الولي الصالح –الشعر الشعبي الجزائري– محمد بلخير– سيد الشيخ– الرحلة البيضا– موروثنا الثقافي.

مقدمة:

يقول المفكر والشاعر اللبناني من أصل سوري **أدونيس** *« أن الشعر يبدأ من هنا أو هناك ليس للشعر تخوم لذلك ليست المسالة أن نفهمه بل نتأمل في أبعاده ليست أن نستوعبه بل أن نواكبه وهكذا لم يعد جائزا أن نقرا القصيدة خطيا سطرا سطرا وإنما يجب إن نقراها كأننا نقرا فضاء » [1].

الشعر الشعبي من أهم الركائز الثقافية الوطنية والبحث فيه بحث أصيل مرتبط بالتراث الثقافي الذي هو جزء هام من هويتنا وشخصيتنا وتأمين بقائها واستمرارية صمودها ضد الأخطار التي تواجهها في ظل التهافت الفكري والسياسي والثقافي والإيديولوجي والتكنولوجي.

والشعر الشعبي لجزائري كغيره من آداب الأمم الأخرى يمتاز بالتعددية والتنوع في أشكاله التعبيرية عربية فصحى ولغات أجنبية ولهجات محلية وألغاز وأمثال وسير وشعر ملحون...الخ، تلك الأشكال والأجناس مرتبطة

ارتباطا عضويا بهموم وآمال الإنسان في حركيته الاجتماعية والسياسية والنفسية داخل الوطن، وليس غريبا أن يكون للغة العامة أدب شعبي يعبر عن حاجات وعواطف الطبقة المحرومة كما للغة الرسمية أدب، وإنما الغريب أن يبقى هذا الأدب بعيدا عن ميدان الدراسة والبحث والاعتراف به من قبل المؤسسات العلمية إلا ما قل وندر..

والشاعر الشعبي هو بمثابة الطاقة المحركة لبعث الحيوية في النفوس والقادر دوما على تحويل الجراح والنكبات إلى نصر، فهولا يخوض المعارك بسيفه بل يسجل الانتصار بأمانته مثلما يصف الهزيمة بألم وحسرة. وهو قبل كل شيء إنسان حساس يعلق في أعماقه الحدث، الكلمة، الصورة والصوت، الشخصيات بمالمحها وأثارها مهما كانت سلبية أو ايجابية، ينساب هذا كله إلى شعره بوعي أو دون وعي ليعطي للقصيدة لونها وخلفيتها يستشعر المتلقي تلك اللمسات الفنية التي تثير ذاته التاريخية والثقافية وتحرض خياله إلى رسم المشهد والعودة إلى الحقيقية في لحظة الغياب عن الحقيقية.

إن ظاهرة استدعاء **الشخصيات** في الشعر الشعبي ظاهرة شائعة عند كثير من الشعراء الشعبيين باختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافيةالاختلاف بينهم في نوعية الشخصيات وطريقة توظيفها، وتلك نقطة الاختلاف بينهم ويمكن أن نذكر منها :شخصيات الأنبياء والأولياء الصالحين، استدعاء هذه الشخصيات المقدسة أملتها عوامل نفسية مرتبطة بالجانب الديني.وقد استمر هذا الى وقتنا الراهن عند أغلب الشعراء المعاصرين. وعلى سبيل المثال نجد

في قصيدة للشاعر **الصحراوي بالديار** تحضر شخصيات الأنبياء في الأبيات الأولى في جو التضرع الذي تخيم عليه علامات اليأس وانسداد الأفق حيث يقول:

أنقذ يا كريم عبدك راه وحـــل وسلاك الواحله من كل خبـــال
يا محي لعظام بعد ان كانت رمل ومن الرمل خلقت **آدم** أول حال
يا مشافي **أيوب** بعد ان كان عطل يا من رفع **إدريس** ربي يا تعـــال
يا من بيديك الخير جود ولا تبخل ويا لمنجي **نوح** بإذنك يا جـــلل

حضور شخصية الأنبياء له رمزية دلالية بتصويرها لحجم معاناة الشاعر النفسية في بلد الغربة ببعدها التراكمي في خطيه الزماني المكاني فغربة الشاعر في هذا المقام كغربة **أيوب** عليه السلام بين قومه.

استدعاء شخصية النبي **نوح** عليه السلام يعطي لهموم الشاعر بعدا تراكميا على خطها الزمني، يزيد مشهد الاغتراب ويحيل إلى يأس يخرج من رحمه حميم من شوق آن، وحنين إلى فرج قريب يختصر تجربة الغربة ويطوي عن الشاعر همومه بسفينة تمخر عباب البحر تعيده إلى ارض الوطن .

كذلك نجد حضور شخصية**النبي صلى الله** عليه وسلم له خصوصيته في القصيدة الشعبية كما تحدثنا عنها سابقا يمكن اعتبارها تقليد شعري دأب الشعراء على ترسيخه في الشعر الشعبي، فحضور ذكر **النبي صلى الله عليه وسلم** في القصيدة يعطيها بعدها الديني ويوثق هويتها الاسلامية، لذا كان

استدعاء شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم بصفاته الخلقية التي تمجده.

حضور الشخصيات الصوفية في القصيدة الشعبية له وقع خاص «باعتبار أن الأوساط الشعبية تعتنق التصوف بفكر أسطوري يضفي على شخصية **الولي الصالح** سمات البطل الأسطوري » [2].

استدعاء شخصية **الولي الصالح** في القصيدة الشعبية متوارث فنجد في شعر **محمد بلخير** شاعر ثورة "**الشيخ بوعمامة**" -كما يلقب-حضورا مكثفا لشخصية الولي الصالح "**سيد الشيخ**"بشكل يقدمه هائما بحبه مثلما يعبر عن ذلك في قصيدته المعروفة في المنطقة **الرحلة البيضا** التي يقول فيها رحل البيضا هلل حرمتك عارك لا تنســـــاني

جبنالك الصلاح وين طافو في كل بـــلاد

سرحني يا سيدي نشوف وطانك ووطاني

ونسال على لحباب كان مازالوا جارك عاد

انا كنت مهني منين كانوا قبابك جــيراني

ونبقى فايز بشبوب حرمتك وفضايل الوالد

يمكن أن نقول بأن حضور شخصية **سيد الشيخ** الولي الصوفي في القصيدة الشعبية في هذه المنطقة يوحي بواقع نفسي خاص يخيم على ساحة الشاعر تجعله في وضع متأزم يدفعه الانهزام النفسي إلى البحث على رفع معنوياته بتشبث بحبل **الولي** الذي يمنح الشخص قوة التحمل والتقدم إلى

الأمام كما يضفي حضوره في القصيدة بركة يعتقد الشاعر **حلولها** كلما حوت الأبيات الشعرية اسم الشيخ الصوفي.

كما أن التعلق بشخصيات **الزعماء والأبطال** أمر فطري «أن أحلام البطولة تستهوي الطفل الصغير كما تستهوي الإنسان الراشد، وقد كانت تستهوي البشرية في بطولاتها وما تزال تستهوي»[3] والحديث عن البشرية اليوم وان اختلفت مقاييس البطولة من عمر لعمر ومن عصر لعصر «البطولة في الشعر الشعبي ضرورة يستوجب حضورها في النص الشعري خاصة إذا تعلق موضوع القصيدة أو مناسبتها بحدث تاريخي هام أو موقف بطولي يستنهض الهمم »[4].

فالشاعر من خلال استدعاء شخصية **الأمير عبد القادر** والشيخ **بوعمامة** هو استدعاء لتاريخ بطولي أرخت له المعارك التي حفلت بها الثورات الشعبية وبهذا يبدو للشاعر «أن التاريخ ليس وصفا لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها، انه إدراك إنسان معاصر أو حديث له،فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة ألية فترة من هذا الماضي»[5] فللشاعر أن يستعيد الحادثة التاريخية وشخصياتها كلما قضت الضرورة ذلك «فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فان لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى فدلالة البطولة في **قائد** معين تلك المعركة باقية وصالحة لن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث

جديدة وهي في نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة »[6] والشاعر له حرية فهمها واستعمالها في ثنايا أشعاره وهو ما يعطي للشعر طابعه الخاص في التعامل مع الشخصيات البطولية وأسماء الزعماء والأبطال وانك لتجد الشخصية ذاتها والمعركة نفسها قد وظفت عند عدد غير يسير من الشعراء الشعبيين، لكنك «تلمس **الانسجام** في تعظيمها وتبجيلها كما تلمس **التباين** في مواضع استدعائها وألساليب استعمالها في ذلك » [7].

أولا /من هو: الشاعر محمد بلخير؟:

من«قبيلة الرزيقات فرع أولاد داود، ولد حسب التقديرات بوادي المالح ولاية **عين تموشنت** ما بين 1832–1830 وتوفي في 1905 أي أنه ولد مع بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر وقبيلة **الرزيقات** التي نشأ بها الشاعر هي إحدى مجموعة قبائل " **أغواط كسال**" توجد مضاربها إلى الشرق من مدينة **البيض**»[8] تعيش حياة البداوة التي تتميز بالحل والترحال، والإيواء في الخيام، وممارسة حرفة الرعي، والفروسية ونظم الشعر.

فالشاعر **محمد بلخير** الذي عاش طفولته وبعض مراهقته في الشمال إلا أنه شب على نمط حياة قبيلته وتأثرت شخصيته بوسطها الذي يتصف أهله رغم قساوته بخصال وشمائل كثيرة كالكرم والوفاء بالعهد وحب الحرية والصبر على الشدائد والذود عن الأرض والعرض، ومقارعة الظلم مهما كان مصدره فأكسبته هذه البيئة كثيرا من التجارب والخبرات التي يتمتع بها أهل منطقته مما نما من مداركه، وصقل موهبته فتفتحت قريحته الشعرية منذ أن

تحركت فيه الأحاسيس والمشاعر الوجدانية وتدفقت عواطفه سيلا من الكلام الموزون المعبر، ولقد كان لتنقلاته الكثيرة خلال فترة الشباب بين الصحراء والتل (الشمال)، ومجالسته الفقهاء والعلماء وأهل الرأي والحكمة الأثر البارز في إكتسابه لكثير من المعلومات والمعارف في الشريعة والتصوف والتاريخ رغم أميته وجهله بالقراءة والكتابة وهو يعترف بذلك في قوله:

«مأقريت مع الطلبة بن عشير أولا كتاب بن خلدون جا في يدي»[9]

في نفس الوقت يبين أنه متعلم بما منحه الله من ذكاء وفطنة وموهبة وبما ألهمه من معارف حيث يقول:

«أقريت بلا كتوب من عند الرحمان ما زينها يا الناس طاعة»[10]

لما بلغ سن النضج والإتزان العقلي تناول شعره أغراضا أخرى **كالمديح** الذي نظم فيه قصائد كثيرة تضمنت التوحيد، مدحا لرسول صلى الله عليه وسلم ومدح شيخه سيدي الشيخ صاحب **الطريقة الشيخية** المتفرعة عن **الطريقة الشاذلية** فقد كان من أتباع هذه الطريقة ومن "مقاديمها"، وكان إرتباطه بهذا الولي الصالح قويا كما يظهر ذلك في الكثير من أشعاره.

ثانيا/ النضال والمقاومة:

وبعد قيام ثورة **أولاد سيدي الشيخ** والقبائل المنتفضة معها في 08 أفريل 1864 ضد الوجود الفرنسي بالجهة كان الشاعر **محمد بلخير** ضمن صفوف الثائرين ولعب دورا بارزا في هذه المقاومة، فقد كان لسان حالها وقام بدور ومهمة وسيلة الإعلام لها، وذلك من خلال فخره ببطولات الثوار

والإشادة بإنتصاراتهم على الفرنسيين والرد على الخونة والقاعدين والتشنيع بهم، وإلهاب حماس الأهالي لدفعهم إلى الإلتحاق بالجهاد لمقارعة المستعمر وظل يخوض مع رفاقه الثوار المعركة تلو الأخرى حتى توقيع عقد صلح بريزينة في 20 ماي 1883 بين زعماء الثوار والسلطات الفرنسية لإنهاء القتال بين الطرفين.

وقد رفض **محمد بلخير** هذا الصلح جملة وتفصيلا وإنفصل عن مخيم **سي قدور بن حمزة** الزعيم الرابع لثورة أولاد سيدي الشيخ رغم محاولات إقناعه وترضيته بشتى الوسائل، فسافر إلى المنيعة سعيا لحشد الأنصار وجمع المال والسلاح لتجديد الثورة، ومواصلة الجهاد ولكنه فشل في ذلك.

ولما عاد إلى المنطقة ظل مختفيا عن الفرنسيين وأعوانهم حتى تم القبض عليه حوالي سنة 1886 ونفي إلى كالفي **بجزيرة كورسيكا** بقرار حكومي في 18 جانفي 1887 بتهمة "العصيان" والتحريض على الثورة ضد الوجود الفرنسي في المنطقة وقد نظم في سجنه قصائد عديدة ، كان يذوب فيها شوقا وحنينا إلى الأهل والوطن وشيخه سيدي الشيخ ومسترجعا ذكرياته مع رفاقه الثوار والمعارك التي خاضوها ضد الفرنسيين والإنتصارات التي أحرزوها عليهم في الكثير من مواقع النزال.

مكث **محمد بلخير** في سجنه سبع سنوات وسبعة أشهر، وأطلق سراحه حوالي سنة 1895، ولم يقل أية قصيدة بعد عودته إلى المنطقة وتوفي بعد ذلك ببضع سنوات حوالي 1898 بعد حياة مليئة بالجهاد في سبيل الله والوطن.

دفن بعد وفاته في "تيغست" ضواحي بوعلام، وبعد الإستقلال نقلت رفاته إلى مقبرة الشهداء ببوعلام ليعاد دفنه فيها وتخليدا له كشخصية ثقافية وجهادية.

إن سياسة الاستعمار التي تبث في الفرد الإحساس بالهوان، والخضوع إلى قوانين وأحكام لا تتماشى مع مرجعيته الفكرية، تجعله يثور ويرفض هذا الجاني والظلم المستبد، والسلطة، ولا يهمه ما يخلفه وراءه من كوارث ومآتم ودماء ودموع ومدن الموتى ومماليك للأسى والأحزان. لكنه قد خلق أنفسا ثائرة، انقلب إحساسها بالظلم إلى ثورة عارمة لا لها إلا رد حقوقها، التنعم في أرضها وإن لم يكن، فالموت شرف يبتغى والشهادة أمل يرتجى.

وقد زادت وطأة الاستعمار مرارة، حينما دخل إلى أوساط، وفرق بين الإخوان مغريا إياهم بالأموال الطائلة والثروة الهائلة، المناصب الصغيرة والبشوات، وقد انزاح إليها ذوي اليافعين، الضعيفة والعقيدة الواهية، فكان ذلك بمثابة الضربة القاسية على نفس الشاعر، وزاد من رفضه لهذا الواقع المعيش تحت حكم جائر، وسياسة ديكتاتورية، هدف لها سوى القضاء على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها، توسيع نطاق نطاقها فرض منطقها بشتى

السبل، مهما كانت نوعيتها ومهما بلغتها وتعاظمت مبالغها، ما دامت ستجلب المنفعة وتحقق ما فكّرت فيه منذ سنين.

رابعا: النزعة الصوفية:

الصوفية مذهب ديني، يعرف على أنه مذهب يعني الابتعاد عن مغريات الدنيا بالعبادة الدائمة، وترك ملاذ الحياة و ترفها، والسير في ذلك على مذهب شيخ يدين له التابع بالولاء والطاعة، فيكون رجاءه حين الرجاء وغناء حين الافتقار، رفيقه حين الخلوة، ناصره إن هو غُلب أو ظلم، كذلك كان الشاعر **محمد بلخير** لشيخه "**سيد الشيخ**" يقول [11]:

خديم رحل البيضا زين أنا القبـــــاب محبوب خاطري لبدا متونـــــس بـه
سيد الشيخ حرمتك ليك هدين النيا ومن قاصد شيخ لازم تبان وفضالو

ويجد فيه فردوسه المفقود وكيانه الواهي فيترجاه ويتوسل:

قولي يرضيك ضان على أنا قلبك يرضاني لعباد ما نقطع ليـــــاس
لكان رحل البيضا يرعاني نضحى بين سمحات وساير مع ذاك الميعاد

لكن الحالة الاجتماعية التي فرضها الاستعمار، انعكست سلبا على القبائل، فتفرق شملها بين ممسك بدينه ووطنه، بين مساند للاستعمار خادما له، خوفا من بطشه وطمعا في، فأوجس هذا في نفس الشاعر، فحرك مشاعره ونفسه الأبية، فأبت فروسيته هذه الفوضى فأطلق العنان للسانه مترجما آلامه لعله يجد آذانا صاغية تحمل أنفته وترمم ما تم هدمه، يقول:

والعرب ما يقعدوش انتاع انقار من عرب حمير وفرسان محزوم
والزوى سقامين الخيـــــل لحــرار من عطاو ليوهـــــم ساعمــة

حين نكبت الجزائر بالاحتلال الفرنسي، وتوسّع كالمرض الخبيث في جسم الأمّة، اندهش الشّاعر **محمد بلخير** من هذه الظّاهرة الغريبة ونظم حول ذلك عدة قصائد بيّن فيها طغيان هذا الأجنبي الفرنسي إلى أن كانت مقاومة أولاد سيدي الشيخ 1864م الّتي وجدته كهلا وهو ابن الأربعين فانخرط فيها واجتمعت عنده الفروسية وقول الشعر، وكان لشعره الأثر الأقوى على الفرنسيّين وأتباعهم ، فأصبح من المطلوبين بالقبض عليه.

وتنقل جل الأبحاث أن من بين المعارك التي شهدها، عوينة بوبكر والتي قتل فيها العقيد – بوبيرتر –ومعركة ابن الحطاب ومعركة غارات سيد الشيخ في فيفري 1965م، والتي استشهد فيها زعيم الثورة **سي محمد بن حمزة** وهو في ريعان شبابه، كما شارك في معركة عين ماضي أو القارة العشوى في عهد ثورة بوعمامة، بعد مسيرة قتالية جهادية بطولية طويلة، مع ثورة **أولاد سيد الشيخ الأولى** والثانية، هاجر **محمد بلخير** مع الثوار أو أولاد سي حمزة بن بوبكر إلى الوادي الغربي ومنه إلى قير ثم إيغالي وتينقورارين وبعد برهة حصل نوع من الخلاف ما بين بن حمزة المؤيد للتفاوض مع الفرنسيين وأخيه قدور بن حمزة، قائد الثورة، حينذاك والمتحمس لمواصلة الجهاد مع عمه سي الأعلى لكن محمد بلخير لم يقف موقف المتفرج من الأحداث التي تجري حوله أو تصيب إخوانه، إنما كان

يجول خائضا كل الغمار طارقا كل باب متصديا لكل حالة، يحث ويحاول ويشجع ويذكر، وبعدها اضطر الشاعر إلى مغادرة معسكر الخلاف لينتقل إلى المنيعة لحث أولاد زايد والشعانبة على استئناف الجهاد المقدس، غير أنه لم يوفق في مهمّته فاتّجه صوب مخيمات ومراعي الرزيقات عند عشيرته وقبيلته إلاّ أنّ السلطات العسكرية التابعة لحامية البيض أخذت عائلته كرهينة ونقلتها إلى الثكنة تحت حراسة مشددة من جنود مسلحين وكان «**محمد بلخير** يعلم أن من بين أفراد عائلته أخ له مريضا فتقدم إلى المركز العسكري باذلا نفسه للعدو مقابل الإفراج عن عائلته فألقي القبض عليه، وأخضع للتحقيقات والاستجوابات وبعد ذلك سيق إلى السجن وقضى به عدة أيام ثمّ نقل تحت حراسة مشددة إلى معسكر، حيث التأم مجلس حكمه الذي أصدر حكمه بسجنه 10 سنوات مع نفيه إلى جزيرة كورسيكا سنة 1884م»[12]، انتشر خبر هذا النفي كالنار في الهشيم في كل الأنحاء لأنّ اسم محمد بلخير ومسيرة حياته قد ارتبطتا بتاريخ المقاومة الشعبية في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي للجنوب الوهراني والذي دام أكثر من ربع قرن وبعد قضاء فترة بسجن معسكر أخذ إلى وهران ومنها أبحر إلى مرسيليا، ثم حول إلى جزيرة كورسيكا ليسجن بقلعة كالفي الرهيبة، اعتقد الشاعر أنه اجتاز بحرين من وهران إلى مرسيليا ومنها إلى كالفي كما ورد ذلك في قصيدة له:

فيوك يا خلقي تعوّل سلاك الحاصلة تفك من البحرين

وكم قتلت قلعة كالفي وقلاع سان موغريب وكاليدونيا وغيرها من أرواح جزائرية كانت متفائلة مبتسمة.

كان الشاعر **محمد بلخير** في سجنه يطلب من الله تعالى أن يفرج عنه ليرجع إلى أرض الجزائر الطاهرة دار الإسلام ومما يؤلمه أيضا داخل السجن هو الإذلال الّذي كان يشعر به من شدّة المهانة وفقدان الكرامة والإنسانية وهو الفارس الشهم، فرغم العذاب الجسدي المتمثل في الأعمال الشاقة، فإنّ آلامه النفسية كانت أشد، وقد دوّن الشّاعر أروع القصائد في هذه الظّروف، وقد وصل البعض منها إلى الجزائر رغم الستار الحديدي المضروب عليه وبقيت مخزونة لدى الذاكرة الجماعية لدى أهل المنطقة ويرددها بعض المولعين بالشعر الشعبي أمثال بن حاجة محمد وحفيد الشاعر محمد بلخير الحاج عبد القادر.

أفرج عن **محمد بلخير** 1894م فرجع إلى أرض الجزائر ولم يسمح له بزيارة أهله بالبيض، فتوجه إلى الأبيض سيد الشيخ عند القبة وأقام بعض الوقت وحاول أولاد سيد الشيخ أن يعوضوه عن معاناته فقدموا له هدايا ثمينة من ملابس فاخرة وحصان جميل بسرج مطرز بالخيوط الذهبية ... أمضى بقية حياته في قول الشعر الذي يفضح فيه أعمال الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ولم يمكث في مكان واحد بل كان رحالة كثير التجوال عبر الجنوب الوهراني، وحين تقدم به العمر أصبح يصاب من حين لآخر بوعكات صحية تلزمه الفراش، حتى فارق الحياة سنة 1904م أو 1906م

ودفن في مقبرة القناطر، لكن بعد الاستقلال قام أحبابه وأقاربه بنقل رفاته إلى مقبرة الشهداء بدائرة بوعلام قرب البيض من جديد بجانب شهداء ثورة التحرير الكبرى.

محمد بلخير الذي نحتته البيئة فصنعت منه شاعرا مميزا عن بقية الشعراء الشعبيين فهو فارس ومجاهد وشاعر الثورة والحب عشق المرأة وعشق الثورة وعشق سيد الشيخ، فقد كان لتنقلاته الكثيرة في مناطق الهضاب العليا والصحراء ومجالسة الفقهاء وأهل الرأي والحكمة الأثر البارز في اكتسابه لكثير من المعلومات والمعارف في الشريعة والتصوف والتاريخ رغم أميته، إن أميته – إن صح التعبير –رفعت من قيمته بفضل ثقافته الشعبية كان ذا قلب سخيّ وروح سامية فقد كان بداخل هذا الرجل البدوي ملكة شعرية أهلته لأن يكون شاعر القبيلة وفارسها، لقد قال الشعر قبل أن يبدأ في الصوم ويقر أنّه لم يتعلم القراءة والكتابة بتاتا:

ما اقريت مع طلبة بني عشيـــــــــر

ولا كتاب ابن خلدون جا في يدي

كما أنّ تجربته الغنية في الحياة من جراء احتكاكه بالمجتمع وأهل الدراية والعلم والخبرة مكنته من إدراك كنه الكثير من الأحداث فكانت له فلسفته في الحياة تنم بنظرة صائبة وحكمة حاضرة.

ما نيشي بادع للكلام نحسب قولي مداوي

نهدر لك بالمعنى إذا تكون للجلوس عقول

دنق للعرف إذا طال ذاك من الشجرة راوي

والقاصف بعدما تكمله يسمى موصـــول

الرقبة بعد ما تكـــنه للبـــــارود القـــاوي

دنق جهد البارود قاع من صال عليه يصول

الجايح بعدما تعظمه ما يرجع شي ســاوي

دنق للي مبداه شين ما مات إلا مذلـــول

ويقول:

ما تدوم أيام الشـدة يحن ربي بأيام الخير

ما تدوم سموم البلدة مقابلتها ساعة تبرير

ويصف إيمانه بالله وبقضائه ويدعو الله بالمغفرة له ولوالديه ولجميع من معه، على أمل أن يفك سجنه ويتغير حاله بفضل الله.

أمر الله قريب ويدور المشوار ربي قال أظن عبدي نوفيــه

اغفريا لغفار لجميع الحضار وناظم لشعار ولوالديـــــه

وفي قصيدة أخرى:

ربي غفـــــار للـــــــزلازل يغفر ذنبي مع ذنوب الصالحين

ابغيــت من الرخـــا نكيـــل يرعى نحلي نوار جنة العدنيــن

انسحب **محمد بلخير** مع رفاقه، بعد معارك عديدة إلى المغرب واستقر في تافيلالت، لم ينقطع عن قول الشعر والتغني به، ولكن قصائده هذه المرة موضوعها الكفاح والاستنفار للحرب، وليس يخل بالشعر مطلقا

أنّه يتحول سلاحا قويا في يد الإنسان يفتح به طريق السعادة والعدالة الاجتماعية التي تزول فيها كل أنواع السيطرة والاستغلال والعبودية، وقد احتل الحصان فيها مكانة مرموقة لا يدانيه فيها إلا البندقية، وما إن يرسم خياله لوحة لجواد أو بالأحرى لجياد، أي حركة موكب خيل جامحة مطلقة العنان حتى يمزجها برائحة البارود، يقول:

واش يجيب إجبال كسال للفيلالـي
بكري كان يجيني طير حرّ يحـــوم
في ذاك المضرب ضاري انحرق خيلي
ويستنى عودي حتى اتجيه القـــوم
هذي تحريكة تغدى وذيك اتوالـــي
ومن درك العلفة بارودها كمكوم
يطلع في راسي حمان به انشـــــالي
ويلعب عودي لعب إزفافني ملطوم

كما يفخر الشاعر بمآثر قومه وجودهم وكرمهم فلما كان حسن الضيافة من الفضائل التي يحتفي بها بلخير كل الاحتفاء، لا لأنه مطلب من مطالب الخلقية وصنيع جميل وحسب، بل لأنّه كذلك عمل يحفظ العلاقات الشخصية ويصونها ويستديم الحوار ويتيح الصلة والتواصل فالاتّصال أو التواصل في تلك السهوب الجرداء يكف الصمت ويؤنس الوحشة ويكسر العزلة ويوصل الخطاب ويبلغ الرسالة ويرعى حق الأخوة.

نهفي وانبان كالسراب تحت الغيوم حارز عرضي ولساني
للي قاتل بوي انضيفوا بالطعـــام نضحك للي عاداني

وهذه المواقف العملية هي التي كلفته حجز عائلته من طرف الحكام وكلفته حياة ظلّت مضطربة فلم ينعم بالاستقرار، مرة في تافيلالت جنوب المغرب ومرة في المنيعة وأخرى في المنفى بكالفي، في جزيرة كورسيكا وقد أخذ المنفى جزءا غير يسير من حياته بعيدا عن الأهل والوطن.

إن روح المقاومة التي كانت تلاحق الشاعر محمد بلخير قد كلفته التضحية بشيء غال، إنها الغربة، غربة في وطنه بسبب الاستعمار وغربة في السجن بسبب الاستعمار أيضا، ومن هنا كان لموضوع الغربة نصيب في شعره.

وقال وهو في منطقة تافيلالت بالمغرب:

الدنيا ضاقت وأنا رحيلي تالـي من تفكار حبابي خاطري مهموم
الدنيا ليلها قمر بدر يلالـــــي وليلة فيها ظلمة وتبان النجـــوم
واش يجيب جبل كسال للفيلالي بكري كان يجي الطير حر يحـوم

وقال وهو في المنيعة:

نعشى بلاد الناس في طلب العلا وبلادنا متروكة للنـــاس
ونكاد تفترش الثرى وبأرضنـا للأجنبي موائد و كراسي
وطني أحب إلى من كل الدنى وأعز ناس في البرية ناسي

****

ما درت الطّايحة هجرت على ليمان ما هي سرقة ولا خديعـــة
هربت نفسي من النصارى والشيطان وارضات لصاحب الشفاعة

أما في سجن كالفي فكان يقول:

من حبه خاطري امهول وحش أولادي وحب سيدي جاو ثنين
راني في كالفي مجول أنا والشيخ بن دوينـــة مرهونيـــن

خاتمة:

هذا فيض من غيض حول موضوع الشعر الشعبي في الجزائر وشعرائه الفحول وعلى رأسهم الشاعر الفذ "محمد بلخير" رحمه الله الذي ترك تراثا شعريا ضخما لا يزال الكثير منه مدسوسا في الخزائن والحقائب وفي الرفوف والأدراج وفي المخطوطات وربما ضاع الكثير منه بسبب الإهمال واللامبالاة ولعل ما وصلنا من شعره إلا القليل الذي كان محفوظا في ألباب الذاكرة الشعبية ومكنونا عند بعض المهتمين .

نرجو أن نكون من خلال هذه الدراسة نفثنا قليلا من الغبار عن جانب من موروثنا الثقافي الأصيل وإخراجه إلى النور، والتشهير ببعض الشخصيات الكبيرة والمجهولة حتى – بيننا –في هذا الوطن، وإخراج شعرهم إلى البحث والدرس، ومن جهة أخرى تبيان دور الشعر الشعبي في تحديد وتسجيل جانب مهم من نضالنا الثوري المجيد، ودفع الطلبة الباحثين للتنقيب على البعض من الجوانب الغامضة فيه.

قائمة المراجع:

1- الثابت واملتحول صدمة الحداثة، أدونيس،ط1، دار العودة، بيروت 1978 ص314.

2- مقارنات الديانات القديمة، محمد ابو زهرة، د ط، دار الفكر العربي مصر دت ج1 ص 112.

3- العبادات في الديانات القديمة، عبد الرزاق املوحي،ط1،دار االوائل دمشق سوريا 2004 ص 30.

4- أشعار الهوى والوغى ملحمد بلخير: بوعالم بسايح، ترجمة: نور الدين خندوري، منشورات ANEP الجزائر 2007 ص112.

5-ناصر صبار: محمد بلخير شاعر الحكمة والحرب،دار الغرب للنشر والتوزيع-وهران، الجزائر دت، ص 129 لوالية البيض 1989ص11.

6- دحماني، خديجة، مجلة "محمد بلخير"، البيض، مكتب حماية التراث الثقافي، 1989 م، ص. 14.

7- دراسات في النفس اإلنسانية، محمد قطب،ط10، دار الشروق،القاهرة مصر 1993 :ص250

8- دراسة في الأدب العربي،مصطفى ناصف ،الدار القومية للطباعة والنشر مصر دت ص205 .

9- دحماني، خديجة، مجلة "محمد بلخير"، البيض، مكتب حماية التراث الثقافي، 1989م، ص. 14.

10- دودو، أبو العيد، **الشاعر وقصيدته**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط، 1986م، ص 07.

11- خرفي،صالح،**الشعر الجزائري**،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر التوزيع د.ط، د.ت، ص. 16.

12- محمد سرير، " خطاب الرفض في شعر محمد بلخير"، إنسانيات / إنسانيات، 2009 | 46، .113-101

***علي أحمد سعيد إسبر** المعروف باسمه المستعار **أدونيس** شاعر سوري- لبناني، ولد سنة 1930 في قرية قصابين التابعة لمدينة جبلة في سوريا .تبنّى اسم أدونيس تيمناً بأسطورة أدونيس الفينيقية الذي خرج به على تقاليد التسمية العربية منذ العام .1948 نال الجنسية اللبنانية مع أسرته في العام 1957،تكررت دعوته كأستاذ زائر إلى جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا .تلقى عدداً من الجوائز العالمية وألقاب التكريم وتُرجمت أعماله إلى ثلاث عشرة لغة، وهو عضو الهيئة الإستشارية لمشروع كتاب في جريدة.

** **الصحراوي بالديار**: شاعر من ولاية البيض.

المرجع الإلكتروني:

12- محمد **سرّير**، " خطاب الرفض في شعر محمد بلخير"، إنسانيات / إنسانيات عبر الإنترنت-200946 | ، نُشر في 01 مايو 2012 الدخول يوم 8 ديسمبر 2021 على الساعة 10:43د.